المقتطف

الجزء العاشر من السنة الثالثة عشرة

١ تموز (يوليو) سنة ١٨٨٩ = ٢ ذي القعدة سنة ١٣٠٦

حريّة الارادة

بربّكَ ايُّها الفلكُ المدارُ أقصدٌ ذا المسيرُ ام اضطرارُ

حدّث الباحث بن العصر قال اجتمعتُ في بعض الامصار بصاحبيّ الاختيارِ والاضطرار بعد ان افترقنا ثماني سنوات طوال[1] لم احظَ منها فيها بطيف خيال . فتجاذبنا اطراف الحديث من قديم وحديث وجاءني البريد حينئذٍ وفيه رسالة سايغة الذيول[2] اطرأ فيها الكاتب بالمقتطف ايّ اطراء واثنى على خطوه خير ثناء . فلما

(١) اشار بذلك الى المناظرة بين الاختيار والاضطرار في هل الانسان حرّ الارادة المدرجة في المجلد الخامس من المقتطف وهي التي شهد لها سمو البرنس حشمت السلطنة

(٢) وردت هذه الرسالة في اواسط يونيو الماضي من حضرة العالم العامل صاحب التصانيف الكثيرة الدكتور لويس صابونجي صاحب جريدة النحلة العلمية واستاذ العربية في المدرسة الامبراطورية بلندن وفيها يقول "قد قلتُ مراراً واقول تكراراً قولاً لا يخفى عليه من منكر ان المقتطف صحيفة فريدة في جنسها لا اختَ لها في العربية . وجلُّ وصفها انها صريحة المعاني بليغة المباني . يجولُ فرسانها في حلبة المعارف والعلوم على اختلاف اجناسها . فلو اقتصر كل من نطق بالضاد على مطالعتها لاستغنى بها عن غيرها وجنى منها المعارف جنى النحل للعسل واستفاد منها فوائد جمة فاتته في عهد الدراسة . ولقد وجدتُ ما وجدهُ غيري قبلي ان فصولها العلمية ومقالاتها الصناعية محكمة غاية الاحكام على اصول العلم . ولقد استنَّ كتابها بسنةٍ تحلت بالعصمة من الهفوات . فنهنيء اخواننا ابناء المشرق قاطبةً بحصولهم على هذه الصحيفة الغراء ونثني ثناء جميلاً على منشئيها الفاضلين ونتمنى لها طول العمر والعافية ليقوما بخدمة وطنها خدمةً نصوحة ويحصدا ثمار ما زرعا اضعافاً . ولم نقصد بهذه التهنئة تسجيع تقريظٍ للمقتطف فانهُ في غنىً عن ذلك . وايُّ تقريظٍ تحتاج اليه صحيفة كل حرفٍ من حروفها تقريظٌ برأسهِ ينبي على جليل مقامها . سألتُ الله ان يبقيها ذخراً وينفع بها ابناء الاوطان دهراً فدهراً"

اطّلعنا عليها قال الاضطرار اقول والحق اولى ان يقال ان المقتطف لكما قيل فيهِ "جليس انيس ايام الفراغ وندم فريد لا تنفد جعبة اخبارهِ ولا تنتهي جدد فرائدهِ سواء كان في العلم والفلسفة او في الصناعة والزراعة"(٣) ولكن عندي عليهِ انهُ شدّد الوطأة على الماديين لغير ذنب جنوهُ ولا اظنهُ الاَّ مضطرًّا بدواعي الحال مصداقًا لقول مَنْ قال(٤)

ومن لا يصانعْ في امور كثيرةٍ يضرَّسْ بانيابٍ ويوطأْ بمنسمِ

مثال ذلك المائيّة التي نشرها في الجزء الاخير فانهُ وضعها بين مقالاتهِ مصدّقًا لها حاسبًا ان الارادة قوة مستقلّة عن قوى المادّة مع ان علماء هذا الزمان قد اثبتوا انها قوة من قوى الدماغ لما فيهِ مجهّزات خاصّة تنمو وتضمر وتقوى وتضعف بحسب دواعي الوراثة والعادة والتربية الى غير ذلك مما لم تبقَ فيهِ شبهة عند طلّاب الحقائق

قلم يتم الاضطرار كلامهُ حتى اعترضهُ الاختيار وقال رويدك ايها المعتسف في المقال المتعمّد اصلاء نار الجدال أَوَنسيتَ ما دار بيننا منذ بضع سنوات وما جئتك بهِ حينئذٍ من الآيات البيّنات

فقال الاضطرار نعم ولكنَّ هلالي قد صار بدرًا . وما لم يحققهُ العلماء حينئذٍ قد حققوهُ الآن مرّة أُخرى . أَوَلا ترى انهم قد عدلوا عن الاحكام الموضوعة حتى في الآداب والديانات وعوّلوا على اخذها من طريق البحث الطبيعي والعلم العملي فوجدوا ان كلّ ما في هذا الكون جارٍ على نظام تام وان الحوادث كلها نتائج طبيعيّة عن مقدّمات سابقة لها كانها تواليَ هندسية تنجت عن السوابق او عبارات جبريّة تولّدت بالضرب والقسمة . والذين يذهبون هذا المذهب لا ينحصرون في طائفة الماديين بل يتناولون جمهورًا من المتدينين(٥) وعند بعضهم(٦) ان حركات الكون كلها بل حركات اصغر جواهرهِ الفردة هي النتيجة الضرورية عن حالتهِ السابقة وهي العلّة الكافية للحالة التي سيتصل اليها . ولو اتسع ادراك الانسان اتساعًا كافيًا لامكنهُ من النظر الى حالة

(٣) من الكتاب الذي كتبهُ دولنلو افندم رياض باشا ترجمًا بالمقتطف لما نقل الى القطر المصري

(٤) قالت ذلك جريدة البسفور الفرنسوية مدعية ان اصحاب المقتطف يعسر عليهم ان يجاهروا بافكارهم

(٥) اشارة الى الدكتور تشلرس ودوك ارغيل . ولدوك ارغيل كتاب مشهور موضوعهُ سلطان الشريعة ابان فيهِ ان كل حوادث الكون مقيد بنواميس محدودة لا تتعداها

(٦) اشارة الى قول الاستاذ دلبف في نشرة الجمعية الملكية البلجيكية سنة ١٨٨٣

الكون الحاضر ان يعلم ماضي هذا الكون ومستقبله . ولا يتسنّى لاحد ان يقول بحريّة الارادة ما لم ينكر بعض ما تقدّم اي ما لم يثبت ان الكون غير جارٍ على ناموس مطّرد لان الحرّ المختار يقتضي ان يعمل اعمالاً لم يضطر اليها بالاسباب السابقة . وانت تعلم ما اتفقنا عليهِ في المذاكرة الاولى منذ ثماني سنوات وهو ان القوّة لا تزيد ولا تنقص كما ان المادة لا تزيد ولا تتلاشى فاذا تحرّكت يدي الآن فما حركتها الاّ نتيجة قوة قد اخذتها من الغذاء الذي اكلتهُ والهواء الذي تنفستهُ فوجود الارادة الحرّة والحالة هذه فرض لا دليل لهُ ولا يقوم على صحتهِ برهان

فقال الاختيار اننا لا ننكر ان القوى الطبيعيّة تجري على سنن واحد ولكننا نقول ان في الكون قوةً اخرى ترشد القوى الطبيعيّة[٧] اي ان القوى الطبيعيّة تتحوّل من حالة الى أُخرى بتدريب قوة خارجة عنها كما ان حركة الآلة البخارية تستحيل الى قوة كهربائية بسبب المغنطيس الذي فيها وتكون القوة الكهربائية معادلة للقوة البخارية تماماً واما القوة المغنطيسيّة التي في المغنطيس فلا تزيد ولا تنقص ولا تتحوّل ومع ذلك فانها تفعل فعلاً عظيماً في تحويل الحركة الميكانيكية الى قوة كهربائيّة ونور من ابهر الانوار[٨] . وعليهِ فيمكن القول بان الارادة تدرّب القوى العصبيّة والعضليّة لعمل الاعمال المختلفة كما ان المغنطيس يدرب الحركة الميكانيكيّة لتستحيل الى قوة كهربائية

فقال الاضطرار على رسلك فاني لا ارى التمثيل وافياً بالغرض لان القوّة المغنطيسية نوع من القوّة الكهربائيّة فاذا كانت الارادة من نوع القوّة العصبيّة والعضلية فهذا هو مذهبنا وان كانت مخالفة لها فالتمثيل باطل

فقال الاختيار قد وعيتُ اعتراضك وسلمتُ لك ان التمثيل غير تام من كل وجوهه ولكنهُ غير منقوض ولاسيّما لان عندي ادلة اخرى تعززهُ من ذلك استخدام قوة ضعيفة جداً لابداء قوة عظيمة فالآلة البخارية التي تدفع اكبر السفن في البحر الخضمّ تبدأ في عملها او تنقطع عنهُ بواسطة قوة صغيرة لا تُحسَب شيئاً بالنسبة اليها ويمكن تصغير هذه القوة وتكبير تلك حتى تصير الواحدة في جنب الاخرى كمية غير متناهية . اوَ لم تقرأ في انباء ابيركا انهم لما نقلوا الصخرة العظيمة من مرفإ نيويورك المعروفة بتلة باب جهنم

(٧) اول من قال بذلك الفيلسوف دكارت فانهُ قال ان الارادة ليست قوة طبيعية ولكنها ترشد القوى الطبيعية

(٨) بسط ذلك جوزف مورفي وقال انهُ رأي الاستاذ جنكن

وضعت بنت المهندس اصبعها على زر صغير من العاج فظهرت تلك القوة الفائقة التي نسفت جبلاً عظيماً دون مفرو

فقال الاضطرار وهذا من نوع ذاك لان القوة العضلية التي في اصبع الفتاة من نوع القوة الميكانيكية التي في النسف والبارود . ولو ضعفت قوة اصبع الفتاة حتى لم تعد شيئاً مذكوراً في جنب قوة البارود لبقي مذهبك على علاته ومذهبي على صحته بل لو انحصرت قوة اصبعها في تحريك جوهر واحد من جواهرها الفردة كما قال السر جون هرشل[1] لبقي هذا الحل قطعاً للعقدة لا فكاً لها . ومثله رأي الاستاذ سابَتير[2] الذي انكر خضوع الجواهر الصغيرة لما هو معروف من نواميس الحركة فان ذلك فرض لا يقوم عليه دليل وما اثباته بأسهل من اثبات وجود الارادة الحرة . نعم ان الادلة على ثبوت نواميس الميكانيكيات ليست مبنية على البديهيات كالادلة الرياضية ولكنها لم تصادف حتى الآن ما ينقضها مع ان كثيرين حاولوا نقضها ، وكل اكتشاف جديد يضيف دليلاً جديداً الى ادلة صدقها حتى ان العلماء الطبيعيين الراسخين يسلمون بها تسليمهم بالحقائق الرياضية ويقولون ان نتائجها حتمية اضطرارية كنتائج الحقائق الرياضية

فقال الاختيار وما قولك اذا اثبت لك ان النتائج الرياضية قد لا تكون حتمية اضطرارية

فقال ذلك ما لا تستطيع اليه سبيلاً

فقال خذ ما انت عليك واعلم ان في الزوايا خبايا . افرض اننا رسمنا خطوطاً منحنية على درجات معلومة من الانحناء مثل الخطوط ب د ب د' ب د'' ب ل ب لَ ب لَ' الخ حتى يحصل من تقاطعها منحنٍ آخر ب ا ب فالمنحنيات الاولى مارة كلها لهذا المنحني ومعلوم ان كل خط مستقيماً كان او منحنياً حاصل من تحريك نقطة في جهة معلومة ويمكن معرفة الخط من العبارة

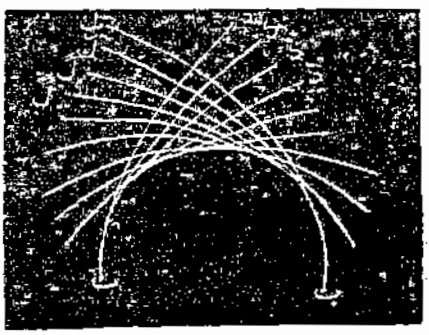

(١) اشارة الى قوله في خطبه ان القوة اللازمة لابداء اشد القوة الحيوانية قد لا تزيد عن تحريك جوهر واحد من جواهر جسم الحيوان مهما كان ذلك الجوهر صغيراً

(٢) في مقالات له في المجلة المسيحية سنة ١٨٨٥

الجبرية الدالّة على تحريك تلك النقطة ولنفرض ان النقطة هي ب فمن تحريكها بحسب عبارة واحدة يمكننا ان نرسم المنحني ب ب او ب د او ب دَ الخ لان كلاً من هذه الخطوط يصدق عليه حكم هذه العبارة على السواء فانت ترى من ذلك ان الاضطرارَ ليس من النتائج الرياضية المحتوم بها دائمًا بل ان الحقائق الرياضيّة تبيح عدم الاضطرار . والحقائق الرياضية هي اساس الحقائق الميكانيكية فعلى مَ لا تكون هذه مبيحة لعدم الاضطرار . هذا ناهيك عن ان الافعال الحيويّة كالتغذية والتمثيل والوراثة لم تُرَدَّ حتى الآن الى النواميس الميكانيكيّة ولا يظهر انها سترَدُّ اليها . وان في اختلاف الموجودات الآليّة بعضها عن بعض من حيوان ونبات لآيات لقوم يفقهون . اولا ترى الاختلاف بيّنًا في كل ورقة من اوراق النبات وكل فرد من افراد الحيوان . فاذا كانت المواد واحدة والقوى الطبيعيّة واحدة فعلى مَ لا تكون نتائجها واحدة كما ان الحامض الكبريتيك المصنوع في معامل فرنسا وجرمانيا وانكلترا واميركا هو هو على بعد المسافة واختلاف الاحوال . ولا تنكر ان الاضطراريين يعتقدون ان كل التغيرات الآلية جارية على نواميس معلومة وناتجة عن مقدمات تدعو اليها ولكنّ قولهم هذا مبنيٌّ على تسليم شيء بايمان البراهة ببرهانها . واذا لم يصدق مذهب داروين على امرٍ من الامور فقد صدق في هذا الامر وهو ان المخالفة ناموس عامٌّ كالمماثلة وان التغيُّر الذي تتغيّر به الاجسام الحية ليس كالتغيُّر الذي تتغيّر به الاجسام الجمادية لان هذه تتغير كل تغيرها دفعةً واحدة واما الاجسام الحيّة فاسباب التغيير التي تطرأ عليها اليوم لا تغيرها تغيُّرًا يذكَر ثم اذا تكررت وقتًا بعد آخر زاد فعلها رويدًا رويدًا حتى ان السبب الذي لا يؤثر فيها شيئًا في اول الامر يؤثر اشد التأثير بعد تكراره

فقال الاضطراري ما ظننتك تجيء بهذا الدليل الواهن فان النهر اذا جرى في مسيل جديد لم يجد الاّ كل ما يعاوق جريه ثم تزول العقبات من طريقه على توالي الايام فلا يجد في طريقه شيئًا يعاوقه . وكذلك آلات الطرب فانها قد لا تصوت صوتًا مطربًا عند اول استعمالها ثم يجود صوتها بكثرة الاستعمال وتوالي السنين حتى ان ما يساوي دينارًا منها وهو جديد يساوي الف دينار اذا قدُم عهده . وابسط ما يقال في ذلك ان دقائق الاجسام تترتب ترتيبًا خصوصًا بتوالي الاستعمال . وانا مقرٌّ لك بامكان وجود الارادة الحرّة لان الحكم في عدد الممكنات محكَم . ولكن اذا كانت الارادة الحرّة موجودة لزم ان نجد فرقًا بين افعالها وافعال القوى الطبيعيّة حتى يسوغ لنا ان نفصلها عنها ونجعلها

نوعًا قائمًا بنفسهِ

فقال الاختبار على الخبير بها سقطتَ . إعلم ان افعال الارادة الحرَّة تختلف عن افعال القوى الطبيعيَّة في انها لا تتَّحد بزمان[11] ففي الانسان قوة طبيعيَّة يكسبها من الطعام والهواء وهذه القوة كثيرًا ما تظهر منهُ اضطرارًا بفعل الدواعي الخارجيَّة كما اذا فاض اللعاب برؤية الحامض او حرَّك الناعم رجلهُ اذا وخزت ولكن كثيرًا ما لا تظهر ولو دعت الدواعي الى اظهارها لان الانسان نفسهُ يكون قد حكم عليها ومنع اظهارها وذلك ما يعبِّر عنهُ عند الفسيولوجيين بالافعال الارادية او الخاضعة للارادة . نعم ان الحياة يمرُّ اكثرها بدون فعل الارادة ولا تتداخل الارادة فيها الَّا قليلاً لاصلاح افعالها اذا اختلت وارشادها اذا ضلَّت . ومن هذه الافعال ما يزيد اذا قُطع الدماغ وهو المعروف عند الفسيولوجيين بالافعال المنعكسة . ولا يخفى عليك امر الرجل الذي إيف حبلهُ الشوكي فلم يعُد الشعور في الاطراف السفلى يصل الى الدماغ ولا القوة المحركة تصل منهُ الى الاطراف السفلى ثم دُغدغ اخمص قدمهِ فرفس رفسًا اشدَّ ممَّا لو كان الحبل الشوكي سليمًا وهو غير شاعر بشيء . ومن المقرَّر الآن عند الفسيولوجيين ان القوَّة الميكانيكيَّة تخزن في جسم الانسان وتظهر اما بمجرَّد تأثير المؤثرات واما بفعل عصبي آتٍ اليها من الدماغ . والفعل العصبي الذي في الدماغ من نوع هذه القوة ولكن المحوَّل لهُ من القوة الى الفعل هو الارادة . وقد استطاع البشر ان يصنعوا آلة صغيرة تدرب اعظم الآلات البخارية مع انها لا تكاد تحسب شيئًا بالنسبة اليها فلا عجب اذا صنعت الطبيعة آلة اصغر منها بما لا يقدَّر لتدريب الافعال الحيويَّة . فالارادة موجودة في طوائف الحيوان ولكنها على تفاوت والعلَّة الانسان تمتاز عن غيرهِ من انواع الحيوان في ان الارادة بلغت فيهِ مبلغ تدريب الافكار فنتج عن ذلك التجريد واللغة والكتابة كما اوضح ذلك الاستاذ مكس ملر اللغوي الشهير

فقال الاضطرار اراك سقتَ الكلام الى تولُّد الارادة وغوها فابسط لنا ذلك لعلك ترى من كلامك انها ليست سوى قوَّة طبيعيَّة زادت في الانسان عما هي في غيرهِ

فقال الاختيار اليك ما تحب . ان اوطأ طوائف الحيوان يكتفي بفتح فيهِ وتطبيقهِ وبذلك يدخل الطعام جوفهُ وينهضم وهذا كل ما يلزم لهُ لقيام حياتهِ ولا دماغ لهذا الحيوان وهو في غنًى عنهُ . فاذا ارتقى الحيوان ودعتهُ دواعي المعيشة ان يتربَّص لفرائسهِ

(11) هذا مذهب دلبف

ويراقبها حتى يصطادها صيدًا صار يتنازعهُ عاملان الاول الفعل القديم الموروث وهو تطيق فهو حالاً لاقل مؤثر والثاني الغريض للغرائس وابقاه الفم مفتوحًا الى ان يدخل منها ما يكفي فهذا الفعل الثاني هو مبدأ القوة العاقلة التي ارتقت في طوائف الحيوان بارتقاء ادمغتها وبلغت في الانسان قوّة الارادة الحرّة

وما تقدم لا يثبت وجود الارادة ولكنهُ يثبت عدم امتناع وجودها وهذا كل ما يُطلَب اثباتهُ من وجهٍ علمي طبيعي ولقد احسن الاستاذ هكسلي اذ قال ان الحرب بين الاختيار والاضطرار ستبقى سجالاً مدى الادهار. واني لا انكر عليك ان الجمادات كلها مقيدة بقيود الاضطرار وان الارادة الادبيّة غير موجودة الاَّ في الانسان. وخلاصة ما قدّمتهُ لك ان الاضطرار غير ضروري دائمًا في النتائج الرياضيّة وان التغيُّر الدائم في الكائنات الآليّة يدل دلالة واضحة على ان افعال الطبيعة غير حتميّة . وان فعل الارادة هو الفعل الذي يدبر الافعال الطبيعيّة ولو رغمًا عن الفواعل الخارجيّة هذا اذا نظرنا الى المسئلة نظرًا طبيعيًا محضًا واما اذا نظرنا اليها نظرًا عقليًا ادبيًا لزمنا الرضوخ لشهادة وجداننا وشهادة الرأي العام وهما اعدل الشهود على وجود الارادة والسلام!

فقال الاضطرار اما اذا اعتمدنا على شهادة الوجدان والرأي العام فالغلبة لك بلا حرب ولا خصام[١٢] ولكن مَن يكفل لنا اصابتهما وقد تعدّدت الشواهد على خطائهما

قال الباحث ابن العصر فانستُ من الجماعة الملل فقلت للمتناظرين ان الحديث ذو شجون وقد ملّت الجماعة من بحثكما في مسئلة اعقد من ذنب الضب فلا تضطردا الآن الى ما هو اعقد منها موضوعًا فعسى ان يجمعنا مجلس آخر نستأنف فيهِ الكلام الى الوجدانيات والرأي العام

اللبن والعطش

اللبن ليس شرابًا يطفئُ العطش بل هو طعام يزيد العطش اشتدادًا فاذا شربتَ كاس لبن وانت عطشان فارتويت منهُ لا تلبث ان تشعر بعطش شديد حينما تشرع المعدة في هضم اللبن. ولعلَّ ذلك سبب بكاء الاطفال بعض الاحيان فانهم يعطشون ويرضعون اللبن فيخمد عطشهم قليلاً ثم يعاودهم باشد مما كان فاذا سقوا ماء ارتووا فابطلوا البكاء

---

(١٢) قال بشيء من ذلك الاستاذ هكسلي وهو مقدام الاضطراريين